# القسم الأول

## الفصل الثالث

# منهج أبي القاسم الأفليلي في شرح شعر المتنبي

# منهج أبي القاسم الأفليلي في شرح شعر المتنبي

اعتمد أبو القاسم الأفليلي المنهج التاريخي في تناوله قصائد شعر أبي الطيب المتنبي، فتدرج بها وفق تسلسلها الحدثي، إذ اعتنى بتحديد الزمن الخاص بالقصائد؛ يومها وشهرها وسنتها. فالقصيدة الأولى على سبيل المثال من هذا المجموع الشعري يقول في التقديم لها: «قال أبو الطيب يمدح الأمير سيف الدولة أبا الحسن علي بن عبدالله بن حمدان عند نزوله أنطاكية، ومنصرفه من الظفر بحصن برزويه، في جمادى الأخيرة من سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، وهي أول ما أنشده».

وأبو القاسم الأفليلي بذلك يجري مجرى أكثر معاصريه ممن تناول ديوان المتنبي بالشرح كالخوارزمي (ت ٣٨٣)، وأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩) والواحدي (ت ٤٦٨ هـ)، لكنه يخالف أقدم شراح المتنبي من رواته وهو أبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢ هـ)، الذي رتب الديوان ترتيباً أبجدياً تبعاً لقوافيه.

وأحاط أبو القاسم الأفليلي في نهجه بقضايا شعر المتنبي التي عني بها من تدارس شعره قديماً وحديثاً؛ مثل مقدمات قصائده، لغته الشعرية، تشكيله الفني، إشكال معانيه، مبالغاته، سرقاته. وانعطاف الأفليلي إلى هذه القضايا من خلال الشرح إنعطاف واعٍ لطبيعتها، ويحمل جوانب ثقافته وفكره النقدي.

## مقدمات القصائد:

يمهد الأفليلي لقصائد المتنبي بمقدمات تطول أحياناً فَتُشَكِّل تعريفاً دقيقاً بالأحوال الخاصة للنص من حيث أعلامه وأماكنه وأحداثه، وتقصر أحياناً أخرى فتكون إطلالة عامة على النص، تحدد مناسبته، وتؤلف بينه وبين جوّه العام. وفي هذا التعريف العام أو الخاص دلالات لازمة لإضاءة جوانب خفيّة متعددة، لا يقوم بحاجتها، ولا يفي بغرضها تفسير غوامض الألفاظ، وتحليل ارتباط التراكيب والجمل.

وهذه المقدمات من إملاء أبي الطيب المتنبي على رواة ديوانه[1]، كما يفهم من قول ابن جنى في مقدمة شرحه الديوان: «على أنني سأذكر ما شجر بيني وبينه من المباحثة وقت قراءتي ديوانه عليه، إلى سوى ذلك مما أحصره من تلخيص وإيضاح شاهد، وأشرح ما التبس من شعره، . . . وأتنكب اعتراف ذكر الأخبار المأثورة عنه في نظم ديوانه لشهرته»[2]

واستعان بجانب من هذه الأخبار في تفسير بعض المعاني كقول المتنبي:

وجدتموهم نياماً في دمائكم كأن قتلاكم إياهم فجعوا

قال ابن جنى: «حدثني المتنبي لما هزم سيف الدولة الدمستق جال المسلمون بين القتلى ينظرون من به رمق قتلوه، وكب المشركون عليهم فقتلوهم، فلهذا قال هذا، أي هم من قتلاكم **قعود**»[3].

ويكاد الأفليلي يتفرد بتكامل هذه المرويات، وتمام هذه المقدمات، من بين

---

(١) ذهب إلى ذلك د. عبد الوهاب عزام من غير دليل في قوله: «وأحسب هذا كله من إملاء المتنبي على رواة ديوانه» ذكرى أبي الطيب المتنبي ص ٢٦.

(٢) ديوان شعر أبي الطيب المتنبي صنعة أبي الفتح عثمان بن جنى مخطوط مصور عن نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٣ أدب ورقة ٤.

(٣) ديوان شعر أبي الطيب صنعة ابن جنى ورقة ١٦٧.

الثقات من الشراح الذين رووها، ويمكن تأكيد ذلك بمراجعة شرح كل من ابن جنى وأبي العلاء المعري والواحدي، ففي القصيدة التي مطلعها:

تـذكـرت مـا بـين العـذيب وبـارق مجـر عـوالـينـا ومجـرى الـسـوابـق

قدّم ابن جنى لها بقوله: «وقال يذكر إيقاع سيف الدولة رحمه الله ببني عقيل وقشير والعجلان وكلاب لما عاثوا في نواحي أعماله، وقصده إياهم وإهلاك من أهلكه منهم، وعفوه عمن عفي عنه، بعد تضافرهم وتصارفهم وتحالفهم على قتاله»[1].

وقال أبو العلاء مقدماً لها بقوله: «تجمعت عامر بن صعصعة وعقيل وقشير وعجلان أولاد كعب بن ربيعة بن عامر بمروج سلمية، وكلاب بن ربيعة بن عامر ومن ضامها بماء يقال له الزرقا بين خناصرة وسورية، ونمير بن عامر بذي دينار من الجزيرة، وتشاكوا ما يلحقهم من سيف الدولة، وتوافقوا على التزام فيما بينهم؛ شغله من كل ناحية، والتضافر إن يقصد طائفة منهم، وبلغه ما عملوا عليه، وأقل الفكر فيهم فأطغاهم كثرة عَـددِهم وعُدَدهم، وسولت لهم أنفسهم الأباطيل، واستولى على تدبير كعب عقيلها، وحسن ذلك لهم قواد كان في عسكر سيف الدولة، فسار إليهم وظفر بهم، فقال أبو الطيب ويذكر ما جرى ويمدحه سنة أربع وأربعين وثلاثمائة»[2].

ونقل الواحدي ما جاء عند ابن جنى فقال: «وقال يذكر إيقاع سيف الدولة ببني عقيل وقشير وعجلان وكلاب، لما عاثوا في نواحي أعماله، وقصده إياهم، وإهلاك من أهلكه منهم، وعفوه عمن عفى عنه، بعد تضافرهم وتضامهم»[3].

---

(١) المصدر نفسه ورقة ١٨٥.

(٢) معجز أحمد ورقة ٤٥.

(٣) ديوان المتنبي شرح الواحدي ج ٢ / ٥٥٩ - ٥٦٠.

ويمكن إدراك الفارق الكبير بين هؤلاء الثقات الثلاث فيما رووا وأبي القاسم الأفليلي، بمقابلة هذه المقدمة القصيرة بما جاء من صفحات متعددة من القصيدة رقم (٦٦) من هذا الشرح.

أما مقدمة غزوة المصيبة التي وقعت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، والتي قتل من المسلمين فيها زهاء مائة ألف فارس، والتي مطلعها:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع  إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

فقد قدم لها ابن جنى بقوله: «وقال يمدحه ويذكر الوقعة التي نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة الحدث، ويصف الحال شيئاً فشيئاً، وسيأتيك مفصلاً»[1] ولا يعنى التفصيل أكثر مما سبق ذكره من خبر مقتضب في تفسير معنى بيت كما مرّ في تفسيره لقول المتنبي:

وجدتموهم نياماً في دمائكم  كأن قتلاكم إياهم فجعوا

وفصّل أبو العلاء المعري في معجز أحمد في مقدمة هذه القصيدة تفصيلاً وافياً تطابق فيه مع أبي القاسم الأفليلي حرفاً بحرف[2].

ونقل الواحدي كلام ابن جنى فقال: «وقال يمدحه ويذكر الوقعة التي نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة الحدث، ويصف الحال شيئاً فشيئاً مفصلاً»[3].

هذه الموافقة في بعض المرويات تعزز القول بالأصل الواحد لها في صدورها عن المتنبي، وهذه المخالفة تنبىء بتصرف رواة ديوان المتنبي بهذه الأخبار، فإذا كان ابن جنى وهو أحد رواة ديوان المتنبي قد اختصر ذلك كما

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي صنعة ابن جنى ورقة ١٦٥.

(٢) معجز أحمد لأبي العلاء المعري ورقة ٣٤ - ٣٥ وتجدر الإشارة إلى موافقة المعري للأفليلي في مقدمات القصائد ٦٣، ٦٥، ٦٨، ٦٩ من هذا الديوان.

(٣) شرح الواحدي ٢/٤٥١.

أشار في مقدمة شرحه[1]، فلعل رواية الأفليلي للديوان (عن ابن العريف الحسين بن الوليد عن أبي بكر الطائي عن المتنبي)[2] والتي هي إحدى طرق رواية الديوان المتعددة، تميزت بالدقة في النقل والإتقان في الضبط من لدن المتنبي حتى أبي القاسم الأفليلي الذي كان «رأساً في اللغة والشعر إخباريا علامة» فيما يصفه ابن العماد الحنبلي[3]، ويقول عنه ابن بشكوال «كان ذاكراً للأخبار وأيام الناس»[4].

## اللغة الشعرية:

لا سبيل إلى الشك في المفردات اللغوية ومعانيها التي تفردت بها نسخة لندن دون النسخ الأخرى، خاصة أن هذه المفردات قد نصّ على وجودها في مصدرين؛ أحدهما أندلسي معاصر لأبي القاسم الأفليلي، وثانيهما مشرقي متأخر عنه.

فقد نقل البكري في معجم ما استعجم عن ابن الأفليلي شرحاً وتحديداً لموقع العذيب، فقال: «والعذيب بضم أول، تصغير عذب، واد بظاهر الكوفة... وقال إبراهيم بن محمد في شرحه لشعر أبي الطيب عند قوله:

تذكر ما بين العذيب وبارق

العذيب: ماء لبني تميم، وكذلك بارق، وديار بني تميم إنما هي «اليمامة»[5]. ونقل صاحب التبيان في شرح ديوان المتنبي معاني كثير من الألفاظ

(١) من الغريب حقاً أن مخطوطة شرح ديوان المتنبي لابن جنى نسخة المكتبة الأحمدية ـ حلب رقم ١١٥٧ متوافقة ومتطابقة تماماً مع مقدمات ابن الأفليلي، على النقيض من نسخة دار الكتب مما يوحي بتصرف الرواة في النقل.

(٢) فهرسة ابن خير الأشبيلي ص ٤٠٣.

(٣) شذرات الذهب ٣/٢٦٦.

(٤) الصلة ١/٩٣.

(٥) معجم ما استعجم ٣/٩٢٧.

من أبي القاسم الأفليلي، وقد نص على ذلك أحياناً، وأغفل الإشارة إليه أحياناً أخرى، ففي قول المتنبي:

تساوت به الأقتار حتى كأنه يجمع أشتات الجبال وينظم

نصّ صاحب التبيان عليه فقال: «قال ابن الأفليلي: الأقتار: الغبار»[1].

وفي قول المتنبي:

أجل من ولد الفقاس منكتف إذ فاتهن وأمضى منه منصرع

قال صاحب التبيان: «الفقاس: قال ابن جنى: هو الدمستق، كأنه لقيه، قال الواحدي: هو جدّه، وقال ابن الأفليلي: هو رئيس جيش الروم»[2].

وتحديد أبي القاسم الأفليلي للدلالة اللغوية تحديد مركز وفيه قصد، فلا انعطاف إلى تعدد الدلالات، ولا إشارة إلى تباين الاحتمالات، غير أن ذلك لم يمنعه من مدّ طلق المعنى إلى فوائد منظورة في فقه المعنى، كما في قوله: «وطلع النخيل أول ما ينعقد فيه من ثمرته، وتنشق عنه أغشيته، فسمي ذلك العقد حينئذٍ طلعاً، وتسمى الأغشية المنشقة كافوراً»[3].

ويحترس أحياناً فيشير بإيجاز شديد إلى معنى آخر إذا كان مخالفاً لما ذهب إليه، كما في تفسيره الدخال في قول المتنبي:

فلا غيضت بحارك يا جموماً على علل الغرائب والدخال

(١) التبيان ٣/٣٥٧.
(٢) التبيان ٢/٢٢٨.
(٣) انظر القصيدة ٣٩ بيت رقم ١.

قال: «والدخال ها هنا: أن تشرب الإبل ثم تثار فتعرض على الماء، وقد يقال بخلاف ذلك»[1].

ويتجاوز أبو القاسم الأفليلي أحياناً الدلالة المعجميّة العامة إلى الدلالة الأسلوبية الخاصة بالسياق، كما في لفظ الأمين في قول المتنبي:

كم حشاشة بطريق تضمنها للباترات أمين ماله ورع

قال: «... الأمين الذي يصدق فيما وليه، وأراد ها هنا به القيد»[2].

والسِّيد في قوله:

موقعه في فراش هامهم وريحه في مناخر السيد

الذئب، وأشار به إلى «النوع»[3] دون عموم الجنس للصفة الخاصة بهذا النوع من الذئاب.

وهذه القلة في الإشارة الخاصة بدلالة السياق، يقابلها كثرة العناية بدلالة اللفظ القائمة على المشابهة والمجاز، والأفليلي حاذق في التمييز بين ما كان في استعماله العربي المطرد من الحقيقة وإن كان عنصر المشابهة أصلاً فيه، وما كان تطويراً في دلالة المشابهة. فمن الصنف الأول الجريال في قول المتنبي:

ولقد خبأت من الكلام سلافةً وسقين من نادمت من جريالة

قال ابن الأفليلي: «والجريال: صبغ أحمر، وما اشتدت حمرته من الخمر يسمى جريالاً على المشابهة»[4].

ومن الصنف الثاني الغمر في قول المتنبي:

---

(١) انظر القصيدة ٥ بيت رقم ٤٢.
(٢) انظر القصيدة ٢٨ بيت ٢٧.
(٣) انظر القصيدة ١٢ بيت ١٢.
(٤) انظر القصيدة ١٥ بيت ٥.

وخـوضـه غـمـر كـل مـهـلكـةٍ  للـذَّمـر فـيـهـا فـؤاد رعـديـد

قال ابن الأفليلي: «الغمر: مجتمع الماء، فاستعار ذلك في الحرب»[1].

ومن ذلك أيضاً العصف والإنهواء في قول المتنبي:

عـصفـن بهم يـوم الـلقـان وسقـنهـم  بهـنـزيط حتى ابيض بـالسبي آمـد
وألحقن بـالصفصـاف شـابـور فـانهوى  وذاق الـردى أهـلاهمـا والجـلامد

قال ابن الأفليلي: «الانهواء: لحاق الأعلى بالأسفل، وعصفت الريح بـالشي: إذا اقتلعته واشتـد ذهابهـا به، فـاستعـار ذلـك أبـو الـطيب لهـذه الخيل»[2].

ولعل عناية الأفليلي هذه، مرامها التنويه بشاعرية المتنبي في قدرتها على إثراء لغة التعبير الشعرية، مما أكسب الألفاظ دلالات ذات حداثـة وجدة، وطرافة تعبيرية أصيلة.

وعلى الرغم من حرص الأفليلي عـلى تفسير الألفـاظ تفسيراً معجمي الدلالة العامة، إلا أن هذا التفسير قلما يعتمده في تحليله البيت الشعري، بل يعمد إلى ألفاظ المتنبي فيمكّن لها في ذلك بمرادف أو نظير، وكأنه في هذا إنما يؤكد على أن معنى اللفظة يحدده السياق الخاص بالبيت من جهة، وأن اختيار المتنبي للغته من الدقة ما يجعله طاغياً على نثر شعره وتحليله وتفسيره من جهة أخرى، فلا سبيل إلى التغيير والتبديل؛ لأن في ذلك إخلالاً بقوة الدلالة؛ ويتبدى ذلك في قول المتنبي:

يمـد يـديـه في المـفـاضـة ضـيـغـم  وعـينيـه من تحـت الـتريـكـة أرقـم

قـال الأفليلي: «المفـاضـة: الـدرع، والضيغم: الأسـد، والـتريكـة:

(١) انظر القصيدة ٣٠ بيت ٢٦.
(٢) انظر القصيدة

البيضة، والأرقم الحيّة. فيقول: إن هؤلاء الفتيان الذين ذكرهم، كلهم أسد في شدته، أرقم أفعوان في بسالته، يمدّ في درعه يدي أسد، قوة وشدة، ويمد تحت تريكته عيني أرقم، إقداماً وشجاعة»[1].

وفي قول المتنبي:

وإذا وكلت إلى كريم رأيه في الجود بان مذيقه من محضه

قال: «المذيق: المحنوط، والمحض: الخالص، ثم قال: إذا وكلت إلى الكريم في رأيه الجود، كشف لك حقيقته، وأبان لك يقينه، وعرفت بما يبديه لك فضل ما بين المذيق والمحض، وفرق ما بين المشوب والصفو»[2].

وقد يخرج الأفليلي عن هذه الضمنية في الإعجاب إلى الإعلان عن حسن اختيار المتنبي لألفاظه، فيتحسس لموقعها حسناً، ويلتمس لاختيارها علّة لطيفة، كما في نبت الربا في قول المتنبي:

أين أزمعت أيهذا الهمام نحن نبت الربا وأنت الغمام

«وهو من آنق النبت، ولذلك ضرب الله المثل به، فقال تعالى ﴿**ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل**﴾ وهو مع ذلك أقرب النبت موضعاً من الغمام، وأشده افتقاراً إليه؛ لأنه لا يقيم فيه، ويسرع الإنسكاب عنه، ولهذا شبه أبو الطيب حاله به»[3].

واعتمد المتنبي الطلال من بين سائر الأمطار في قوله:

تحجب عنك رائحة الخزامى وتمنع منك أنداء الطلال

«لأنها أسمحها في الروض، وقطرها برقته يثبت على طاقات النور،

(١) انظر القصيدة ٢٥ بيت ٢٩.
(٢) انظر القصيدة ١١ بيت ٣.
(٣) انظر القصيدة ٢ بيت رقم ١.

ويرسخ بلينه في الأرض»[1] واعتمد المارن في قوله:

ليس الجمال لوجه صح مارنه  أنف العزيز بقطع العز يجتدع

«من بين سائر الوجه؛ لأن العرب تفعل ذلك، فتقول: أرغم الله أنف فلان ـ فتقصد الأنف من بين سائر الوجه»[2].

وللغة في شعر المتنبي حركة بنائية دقيقة عميقة تقوم على القلب والحذف والإضمار والإفراد والجمع وما إلى ذلك من ركائز تعبيرية، وقواعد لغوية، يقصدها بمعرفة متميزة بالإحاطة والشمول، حتى عدَّ ابن السيد البطليوسي شعره حجة في العربية يأتلف مع عصر الاحتجاج ولا يختلف عنه[3]. وأدرك ذلك كله أبو القاسم الأفليلي فحرص على بلورة هذه الحركة من خلال طريقة العرب فرسخها في جانبين: التكوين اللغوي، والتشكيل الفني.

## ١ ـ التكوين اللغوي

نبه الأفليلي على مغايرة المتنبي للألفاظ التي يتداولها الشعراء، وقصده أحياناً إلى الألفاظ التي لم يفقدها عدم تعاورها في الاستعمال الأصالة والدقة، كما في البُخْل والبَخَل في قوله:

هو الشجاع يعدُّ البخل من جبن  هو الجواد يعد الجبن من بَخَلِ

قال الأفليلي: «البخل والبخل لغتان»[4].

والتوراب في قول المتنبي أيضاً:

---

(١) انظر القصيدة ٤ بيت رقم ٢٣.

(٢) انظر القصيدة ٢٨ بيت رقم ٤.

(٣) انظر تفصيل ذلك في تيارات النقد الأدبي في الأندلس ٤٠١ ـ ٤٠٣.

(٤) انظر القصيدة ٦ بيت رقم ١٥.

أيفطمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل

«لغة في التراب»[1].

ولا يخرج انتخاب المتنبي للغته الشعرية عن طريقة العرب خاصة فيما ينتاب اللفظ من حركة لغوية إعلالية أو إبدالية، فالأوالي في قول المتنبي:

يدفن بعضنا بعضاً ويمشي أواخرنا على هام الأوالي

«الأوائل، إلاّ أنه قلب، والعرب تفعل ذلك»[2].

ويعتقي في قوله:

لا يعتقي بلد مسراه عن بلد كالموت ليس له ري ولا شبع

«بمعنى يحبس، وهو مقلوب من عاق يعوق، كأن أصله يعتاق، فقلب إلى يعتقي»[3].

واتّار في قوله:

وما قبل سيف الدولة أتّار عاشق ولا طلبت عند الظلام دخول

بمعنى أدرك ثأره «وهو افتعل من الثأر، فأبدل من الثاء تاءً لتقارب مخرجهما من الفم، ثم أدغم إحدى التائين في الأخرى، فقال: أتّار»[4].

ويلتصق المتنبي بطريقة العرب كذلك فيما ينسج من تركيب لغوي، أو فيما يقيم من علاقات تبادلية بين الجمل الشعرية، كما في قوله:

أحسن ما يخضب الحديد به وخاضبيه النجيع والغضب

---

(١) انظر القصيدة ٨ بيت رقم ٢٣.

(٢) انظر القصيدة ٤ بيت رقم ٣٦.

(٣) انظر القصيدة ٢٨ بيت رقم ١١.

(٤) انظر القصيدة ٥٠ بيت رقم ١٢.

فهو يريد كما يرى الأفليلي: «أحسن ما يخضب به الحديد النجيع، وأحسن خاضبيه الغضب، فجمع بين الخبرين والمخبر عنهما، ثقة بفهم السامع، والعرب تفعل ذلك، قال الله عز وجل ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله**﴾ يريد: لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله في النهار»[1].

وموقف أبي القاسم الأفليلي المعجب بأبي الطيب المتنبي حمله على الدفاع عن لغته الشعرية، إذ أبدى حرصاً على إلحاق حركتها بطريقة العرب، فأنهض القرين والنظير فيها لما قد يفهم منه الشذوذ والندور والمجاوزة في شعره، من غير إخلال يعيِّنه أو اتهام بإفساد ينقده، على الرغم من التحليل اللغوي الذي ينهجه، والإفاضة في طلب النظير الذي يتلمسه.

يقول المتنبي:

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده ألم

ويقول أبو القاسم الأفليلي محللاً ومشابهاً ومدافعاً: «وا: حرف ينادى به كما ينادى بيا، وحرَّ قلباه: اسم مضاف منادى، كان أصله واحرّ قلبي، فأبدل من الياء ألفاً، رغبة في الخفة، والعرب تفعل ذلك في النداء، واستجلب هاء السكت، وأثبتها في الوصل كما تثبت في الوقف، والعرب تفعل ذلك في الشعر، وحرك الهاء لسكونها وسكون الألف قبلها، وللعرب في ذلك فعلان؛ منهم من يحركها بالضم تشبيهاً بهاء الضمير، فيقول: واحر قلباه، أنشد في ذلك يعقوب عن الفراء:

يا مرحباه بحمار عفراء إذا أتى قربته لما شاء
من الشعير والحشيش والماء

(١) انظر القصيدة ٤٤ بيت رقم ١.

ومن العرب من يحرك بالكسر على ما يوجد كثيراً في الكلام عند التقاء الساكنين، أنشد على ذلك يعقوب:

يـا رب يـا ربـاه إيـاك أسـل عفـراء يـا ربـاه من قـبـل الأجـل

وهذه اللغة التزم أبو الطيب»[1].

والتعريف بحركة اللغة في شعر المتنبي من خلال طريقة العرب بالمقارنة من غير اتهام، أو المقايسة من غير دفع صريح، ألزمت الأفليلي بموقف جانب فيه التقريظ والإعلان عما حسن في هذه الحركة اللغوية مقابلاً موقفه في الدفاع؛ بمعنى أن دفاع الأفليلي وإن أعاد إلى حركة اللغة في شعر المتنبي الأصالة بالتصاقها بطريقة العرب، فقد خلا من الإشادة والتنويه بالإجادة، تماماً كموقفه مما جاد وحسن في الجملة الشعرية عنده، وأحسب أنه متوازن في منهجه، مقتصد في نقده، متعادل في دفاعه، ولذلك فإن غاية ما نجده لديه في هذا المجال ترديد لمقولات أهل اللغة من النحاة إذا تطابقت القاعدة المطردة مع المثال قصداً أو مصادفة، مما لا يعد نقداً، من ذلك الحذف في قول المتنبي:

وهـان فـما أبـالي بـالـرزايـا لأني مـا انـتـفـعـت بـأن أبـالي

«قال وهان، يريد رمي الدهر له برزاياه، فحذف الرمي لدلالة قوله رماني الدهر عليه، وأضمر ثقة بما قدمه من التفسير، لأنه لما قدّم وصف حاله، ورمي الدهر له، قال: وهان يريد: وهان ذلك، وإضمار ما يقدم ذكره حسن في الكلام»[2].

وفي قول المتنبي:

ومـالي إذا مـا اشتقت أبصرت دونـه تـنـائف لا اشـتـاقهـا وسـبـاسـبـا

(١) انظر القصيدة ٣٤ البيت الأول.

(٢) انظر القصيدة ٤ بيت رقم ٧.

قال الأفليلي: «وسمى تلك العوائق تنائف وسباسب على سبيل الاستعارة، وحذف إليه من الكلام وهو ينوي ذكره، لما في الكلام من قوة الدلالة عليه»[1].

## مصادر أبي القاسم اللغوية

ومصادر أبي القاسم الأفليلي في احتجاجه للغة المتنبي منوعة؛ منها: القرآن الكريم، وقد احتج به في مواضع عدة من شرحه، من ذلك جمع الفرقدين في قول المتنبي:

أحبك يا شمس الزمان وبدره وإن لامني فيك السهى والفراقد

«وهما النجمان النيران من النعش، وجمعهما وهما اثنان؛ لأن التثنية ضرب من الجمع، وقد يخبر عنهما كما يخبر عن الجميع، قال الله عز وجل «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا» فأخبر عن الاثنين كما أخبر عن الجميع، وذلك كثير في كلام العرب»[2].

وعلى الرغم من حضور الآيات القرآنية في شرح الأفليلي، فلا أثر للاحتجاج بالحديث النبوي الشريف في هذا الشرح، فهل يعني هذا أن أبا القاسم الأفليلي لا يعد الحديث النبوي مصدراً من مصادر الاحتجاج؟! أم أنه يقتدي في ذلك بسيبويه الذي أقلّ من الاستشهاد بالحديث[3].

واحتجاج أبي القاسم الأفليلي بالشعر أكثر من احتجاجه بالقرآن

(١) انظر القصيدة ٣٥ البيت رقم ٢.

(٢) انظر القصيدة ٣٠ البيت رقم ٤١.

(٣) انظر موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث النبوي د / خديجة الحديثي ط دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨١.

الكريم، فقد احتج بشعر للفرزدق، وطرفة بن العبد، والمتوكل الليثي، وأبي الأخرز الحماني، النواح الكلبي، وأبي ذؤيب الهذلي ولأحد شعراء بني تميم، فضلاً عن بعض الشعر المجهول القائل أو المصنوع فيما قال سيبويه، ونقله عنه. ومن أمثلة ذلك تثنية الجمع في قول المتنبي:

مضى بعدما التف الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب في الرقدة الهُدْبا

قال الأفليلي: «وثنى الجمعين، لأنه جعلهما حيزين، فثناهما، كأن كل واحد منهما اسم على حياله، والعرب تفعل ذلك، قال الشاعر:

فتنازلا فتوافقت خيلاهما وكلاهما بطل اللقاء مخدّع

فثنى الخيل، وهي جمع، لما جعلها حيزاً بنفسه»[1].

واستعانة أبي القاسم الأفليلي بأقوال العلماء وآرائهم جد قليل، فقد نقل عن ابن السكيت والأصمعي في تفسير الألفاظ وتوضيحها، وعن الفراء وسيبويه في اللغة وحركتها، غير أنه أكثر من النقل عن سيبويه معززاً دفاعه عن المتنبي، كما في تثنية أب في قوله:

تسل بفكر في أَبَيْكَ فإنما بكيت فكان الضحك بعد قريب

قال ابن الأفليلي: «وقوله في أبيك» يريد: في أبويك، فثنى الأب على لفظه، ولم يرده إلى أصله، وقد روى الفراء ذلك، وذكر أن من العرب من يقول إذا ثنى الأب والأخ في الرفع أبان وأخان، وفي النصب والخفض أبين وأَخَيْن، ويقول في الجمع في الرفع: أبون وأخون، وفي النصب والخفض أبين، وأَخَيْن، وأنشد سيبويه في جمع أب جمع السلامة على لفظه لفصيح العرب:

فلما تَبَيَّن أصواتنا بكين وفدينا بالأبينا

(١) انظر القصيدة ٣٢ البيت رقم ٢٩.

وليس تثنية أب على لفظه بأعجب من جمعه جمع السلامة على ذلك».

ويقبس أبو القاسم الأفليلي في دفاعه عن لغة المتنبي من المذهب البصري في النحو، فهو يتبنى آراءهم، ويسوق حججهم، ويأخذ بأدلتهم، ويكثر من الاعتماد على كتاب سيبويه فيما يناقش من قضايا أو يعرض من رأي.

## ٢ ـ التشكيل الفني

لا يختلف موقف أبي القاسم الأفليلي في هذا الجانب التعبيري من لغة المتنبي عن موقفه في التكوين اللغوي، وإن تميّز بخطوة نوعية في هذا المجال، إذ أبدى استحساناً إيجابياً لما حواه الشعر من ألوان تشكيلية بلاغية، وعلى الرغم من اتحاد موقفيه في الإشادة بالمتنبي ولغته التعبيرية، فإن أبا القاسم الأفليلي تنازع استحسانه لشعر المتنبي نزوع تعليمي هوّن من توجهه النقدي، وتطبيقه الفني.

وإعجاب أبي القاسم الأفليلي بالتشبيه المركب يطغى على خلافه من ألوان البلاغة، لأنه عنده أرفع وجوه البديع بفنونه المختلفة، وغاية الإبداع فيه الإصابة فيما تقع عليه المشابهة، كما في قول المتنبي:

نجني الكواكب من قلائد جيده  وتنال عين الشمس من خلخاله

«شبه جواهر عقود محبوبه بالكواكب، ولمعان خلاخله بعين الشمس، وذكر أنه بات يجني الكواكب من تلك القلائد، بتناوله لها، وينال عين الشمس من تلك الخلاخل، بلمسه إياها، فأحرز صواب التشبيه فيما شبه، مما لا زيادة عليه في حسن المنظر، وامتناع الموضع»[1].

(١) انظر القصيدة ١٢ بيت رقم ٤.

وللتشبيه المركب معياران في الجودة عند ابن الأفليلي، أحدهما: التعدد وثانيهما: التمثيل. فمن التعدد قول المتنبي:

تهدي نواظرها والحرب مظلمة من الأسنة نار والقنا شمع

فهو «مما شبه فيه شيئين بشيئين في بيت واحد، أصح تشبيه، وذلك غاية الإبداع»[1].

ومن التمثيل قول المتنبي:

كل يريد رجاله لحياته يا من يريد حياته لرجاله
دون الحلاوة في الزمان مرارة لا تختطى إلا على أهواله

قال الأفليلي في تحليله: «يقول: دون حلاوة الظفر، ولذة بلوغ الأمل، مرارة من الغرر، ومشقة من الخطر، لا تتجاوز تلك المرارة إلا بمقارعة أهوال الزمان وشدتها، والتعرض لمحنتها وصعوبتها، وضرب هذا مثلاً فيما قدّمه، والمثل أرفع وجوه البديع»[2].

ويلحق بذلك المثل السائر، ومثاله في شعر المتنبي قوله:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

قال ابن الأفليلي: «وهذا مثل سائر، والمثل من أرفع أبواب البديع»[3].

ولا يخفى صدور أبي القاسم الأفليلي عن دائرة المحسوس فيما آثره من تشبيهات، على أنه لا يخرج في التشبيه المتعدد المحسوس عن مقاييس أهل اللغة، وذوقهم من سابقيه في القرن الثاني الهجري، مما هو معروف عند

(١) انظر القصيدة ٢٨ بيت رقم ٢١.
(٢) انظر القصيدة رقم ١٢ بيت رقم ٤٠.
(٣) انظر القصيدة ٣٠ بيت رقم ٣٢.

خلف الأحمر والأصمعي في ثنائهما على تشبيه امرىء القيس «كأن قلوب الطير رطباً ويابساً. . .» و«له أيطلا ظبي وساقا نعامة. . .»[1].

ويتسق أبو القاسم الأفليلي في تذوقه للتشبيه واستحسانه له كذلك مع منحى عصره فيما اتجه وتخيّر، إذ أفاض أبو هلال العسكري في نماذج هذا الفن في كتابه[2] الذي وضعه سنة أربع وتسعين وثلاثمائة.

والاستعارة عند أبي القاسم الأفليلي من البديع أيضاً، شأنها شأن التشبيه، وترتبط الإشارة إليها بالكناية في كثير من الأحيان، ولعله يقصد بذلك إلى الاستعارة المكنية أو الاستعارة بالكناية كما في قول المتنبي:

يا ماء هل حسدتنا معينه أم اشتهيت أن ترى قرينه

قال أبو القاسم: «كنى بالمعين عن البذل، على سبيل الاستعارة»[4]، ومن ذلك قول المتنبي:

وإذا تعثرت الجياد بسهله برّزت غير مُعَثَّرٍ بجباله

إذ «كنى بالسهل عما قرب من الكلام، وبالجبال عما غمض منه، وبالجياد عن أهل الإحسان، فاستعار هذه الألقاب أحسن استعارة، وأشار إلى إحسانه أبدع إشارة وكل ذلك من بديع الكلام»[4].

وقول المتنبي:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

---

(١) الكامل للمبرد ٢/٣٦.

(٢) انظر الصناعتين ٢٥٥ ـ ٢٥٧ وقد سُمّي طلب التشبيه المتعدد عند المتأخرين بالتدبيج.

(٣) انظر القصيدة ٥٤ بيت رقم ٢.

(٤) انظر القصيدة ٢ بيت رقم ١٣ وانظر مثالاً آخر على ارتباط الكناية بالاستعارة البيت ٤٦ من القصيدة ٥.

«أشار بجفن الردى إلى عظيم ما اقتحم سيف الدولة، وبنومه إلى إعراضه مع ذلك عنه، فأطلق الإشارة، وأحسن الاستعارة»[1].

والاستعارة في شعر أبي الطيب المتنبي حسنة ما دام بينها وبين الاستعمال الحقيقي صلة رحم، أو رابطة نسب، وإن لم تكن ظاهرة ظهوراً مميزاً، ولذلك نبه أبو القاسم الأفليلي على ما كاد يحيد عن الحسن تنبيهاً غير ملحق العيب أو الخلل، كقوله في بيت المتنبي:

وريع له جيش العدو وما مشى  وجاشت له الحرب الضروس وما تغلي

قال ابن الأفليلي: «جاشت القدر: إذا غلت وهاجت، . . . وجرى الكلام في جاشت على الاستعارة، وإن كان ما وصفه غير مشهور الحقيقة»[2].

ويكاد أبو القاسم الأفليلي أحياناً يصيب خاصية المتنبي في بناء الصورة الشعرية نماءً وتكاملاً، حين يعقد صلات بين استعارة وأخرى، أو اتصال الاستعارات بعضها ببعض، فمما نبه إليه في البيت الواحد قول المتنبي:

ضممت جناحيهم على القلب ضمّة  تموت الخوافي تحتها والقوادم

قال ابن الأفليلي «ولما استعار الجناحين لمجنبتي الجيش، وصل الاستعارة في الخوافي والقوادم، فأشار بها إلى فرسان المجنبتين الذين باتوا يقلون الجهتين، وينهضون الناحيتين»[3].

ومما تحسسه في أكثر من بيت قول المتنبي:

ورب جواب عن كتاب بعثته  وعنوانه للناظرين قتام
تضيق به البيداء من قبل نشره  وما فض بالبيداء عنه ختام
حروف هجاء الناس فيه ثلاثة  جواد ورمح ذابل وحسام

(١) انظر القصيدة ٦٤ بيت رقم ٢٢.
(٢) انظر القصيدة ٨ بيت رقم ٢٢.
(٣) انظر القصيدة ٦٤ بيت رقم ٢٥.

إذ يقول: «. . . وأجرى الاستعارة في الفضّ والخاتم على نحو ما تقدم له من ذكر الجواب والعنوان، ثم وصل الاستعارة على ذلك فقال: حروف هجاء الناس في ذلك الجواب الذي هو هذا الجيش الموصوف؛ جواد ينهض فارسه، ورمح يقدم حامله، وحسام يصول صاحبه»[1].

ولما كانت القصيدة بنية متكاملة، يحرص الشاعر في تشكيله لها على تحقيق الانسجام والتلاحم بين مختلف العناصر المكونة لها، كتآخي المفردات، وحسن جرس الألفاظ وانسجام ترديد الإيقاع، ومهارة ترتيب الأصوات وتنظيمها، فإن أبا القاسم الأفليلي في شرحه وإن غاب عنه هذا المفهوم الحديث الشامل، فلم يغب عنه جانب من خصوصية فن المتنبي الشعري، حين ركز عنايته على إظهار أدوات فنية، بعضها له أبعاد تشكيليّه في الموسيقى والإيقاع، كالطباق والجناس والتقسيم والتصدير والتتميم، وبعضها الآخر ذو تأثير كبير في أداء المعنى وتوضيحه وتركيزه، كالإشارة والاستطراد والاستثناء.

وعلى الرغم مما عرف عن المتنبي من إيثاره للطباق، هذا اللون الفني البديعي، وشغفه به وعشقه له وإحسانه في المقابلة بين الأضداد[2]. فإن ما أشار إليه أبو القاسم الأفليلي من هذا اللون قليل غير متناسب وهذه الكثرة، فتعداد إشاراته إليه لا تتجاوز المرات الخمس من ذلك قول المتنبي:

كل يوم لك احتمال جديد ومسير للمجد فيه مقام

«ولقد أبدع بالمطابقة بين المسير والمقام»[3].

وكأني بأبي القاسم الأفليلي وقد أقل الإشارة إلى الطباق في شعر المتنبي إنما قصد التنويه بما كان نتاج الطبع منه، إذ نجده يشترط انتظام الكلام وتطلبه له كما في قول المتنبي:

(١) انظر القصيدة ٦٥ الأبيات ٢١، ٢٢، ٢٣.
(٢) مع المتنبي د. طه حسين ص ٥٠.
(٣) انظر القصيدة ٣ البيت رقم ٥.

لـه من كريم الـطبع في الحـرب منتضٍ ومن عـادة الإحسـان والصفـح غـامـد

قال أبو القاسم ابن الأفليلي: «وأبدع بالمطابقة بين منتض وغامد، والمطابقة أن يقترن الشيء بضده على انتظام من الكلام»[1].

أو لعل أبا القاسم جعل مرماه العينة المحدودة التي تفيد في التعلم، وتغني الإشارة القليلة إليه عن التفصيل والإفاضة، وقد جاءت هذه الغاية واضحة في تناوله للطباق كما في المثال السابق وفي غيره، فالجناس في قول المتنبي:

من تغلب الغـالبين النـاس منصبـه ومن عـدي أعـادي الجبن والبـخـل

قال ابن الأفليلي فيه: «وجانس بين تغلب والغالبين، وبين عدي وأعادي الجبن. والمجانسة اتفاق اللفظ مع اختلاف المعنى، وذلك من أبواب البديع، وقد بيناه فيما تقدم»[2].

والتصدير أو ردّ العجز على الصدر في قول المتنبي:

ولـو زلـتـم ثـم لم أبـكـكـم بـكـيـت عـلى حـبـي الـزائـل

وضّحه بقوله: «واستفتاحه بقوله «ولو زلتم» وتقفيته بعد ذلك بالزائل، باب من أبواب البديع يعرف بالتصدير»[3].

وقول المتنبي:

للسبي مـا نكحـوا، والقتـل مـا ولـدوا والنهب مـا جمعـوا، والنـار مـا زرعـوا

«ومثل هذا التصنيف باب من البديع يعرف بالتقسيم»[4].

---

(١) انظر القصيدة ٣٠ البيت رقم ١٦.
(٢) انظر القصيدة ٣٦ بيت رقم ٢١.
(٣) انظر القصيدة ٢ بيت رقم ٤.
(٤) انظر القصيدة ٢٨ بيت رقم ١٤.

ومن التتميم قول المتنبي:

فلما نَشَفْنَ لقين السياط بمثل صفا البلد الماحل

قال أبو القاسم موضحاً علاقة التتميم بمعنى البيت: «فلما نشف عرف هذه الخيل على ما التبس به من الغبار، لقيت سياط الفرسان من جلودها بمثل الحجر الأملس، الذي يكون في البلد الممحل، وهو البعيد العهد بالمطر، وذلك أبلغ في يبسه وجفوفه، وهذه الزيادة التي تطلب بها الغاية، وكان يتم الكلام دونها، باب من أبواب البديع يعرف بالتتميم»[1].

وأبو القاسم الأفليلي مشايع للمتنبي في هذا التشكيل منتصر له، ولئن أضرب صفحاً عما جرى من نقد صنعته الفنية في الأخبار المتداولة، فلم يذكرها في شرحه، فقد غطى عليها باستحسانه لها قلباً لما نقدوه، ودفعاً لما تمحلوه وعابوه، ويتبدى ذلك على سبيل المثال في قول أبي الطيب المتنبي:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

«حكي أن سيف الدولة استنشد أبا الطيب هذه القصيدة، وكان معجباً، فاندفع أبو الطيب ينشدها، فلما بلغ إلى قوله وقفت... إلى آخر البيتين قال سيف الدولة: إن صدر البيتين لا يلائم عجزهما، كان ينبغي أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال أبو الطيب: لما ذكرت الموت أتبعته ذكرى الردى لتجانسها، ولما كان

(١) انظر القصيدة ٥ بيت رقم ١٦.

وجه الجريح المنهزم لا يخلو من العبوس وعينه من البكاء، قلت ووجهك وضاح وثغرك باسم للمطابقة بينهما»[1].

قال أبو القاسم الأفليلي مستحسناً جانباً من هذين البيتين: «وأشار بجفن الردى إلى عظيم ما اقتحم سيف الدولة، وبنومه إلى إعراضه مع ذلك عنه، فألطف الإشارة، وأحسن الاستعارة»[2].

ولئن كان في هذه النماذج التطبيقيّة التي عني بها أبو القاسم الأفليلي قدر من الدلالة الواضحة على إدراك بعض الظواهر الأسلوبية في شعر المتنبي، فإننا لا نستطيع أن نوجد لهذه العناية في التطبيق متعلقاً غير البديع فناً تشكيلياً للفظ أو المعنى أو لكليهما معاً، أما أن في هذه الألوان طاقات نفسية ودفقات شعورية[3]، فذلك ما لا تشي به الدلالة المقيدة غالباً في تناول القدماء، وإن كان تركيزها يحمل ملامح نقدية معبرة عن الاستجابة التأثرية الشعورية لديهم.

## المعاني

على الرغم من تناول أبي القاسم الأفليلي بالشرح لكل بيت مفرداً أو مجتمعاً مع غيره في بعض الأحيان، ونصه على وحدة البيت بقوله «ثم قال» لازمة متكررة بين الأبيات، فقد أوجد بين معاني أبي الطيب صلة بالربط بين المعاني العامة للأبيات، كما في قول المتنبي:

فيا شوق ما أبقى ويا لي من الهوى ... ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبا
لقد لعب البين المشتُّ بها وبي ... وزودني في السير ما زوّد الضبا
ومن تكن الأسد الضواري جدوده ... يكن ليله صبحاً ومَطْعمُهُ غصبا

(١) معجز أحمد ورقة والتبيان ٣/٣٨٦.
(٢) انظر القصيدة ٦٤ البيت رقم ٢٢.
(٣) انظر لغة الحب في شعر المتنبي ص ٣١٠ - ٣٣٦.

فقد ربط ما بين غزله وما شرع فيه من معنى جديد في البيت الثالث بقوله: «ولما ذكر انقطاع الأسباب بينه وبين محبوبته، وتقلب الأحوال به وبها، وتصريف الزمان له ولها، أخذ في ذكر ما تصرف فيه، فقال...»[1].

وكثيراً ما يوجد العلاقة بين الأبيات بقوله: «وقال مؤكداً لما قدّمه» ومن ذلك شرحه لأبيات المتنبي:

نزلت على الكراهة في مكان بعدت عن النُّعامى والشمال
تحجّب عنك رائحة الخزامى وتمنع منك أنداء الطلال
بدار كل ساكنها غريب طويل الهجر منبت الوصال

قال شارحاً للبيت الأول: «نزلت مكرهة في منزل بعدت فيه عن الرياح مع شدّة هبوبها...» وفي البيت الثاني «ثم أكد ذلك بأن قال: تحجب عنك رياح الرياض العبقة....» وفي البيت الثالث قال: «ثم أكد بيان ما أبهمه فقال: بدار من القبر ساكنها غريب، وقاطنها فقير، من حل فيها امتنع وصاله، ومن صار إليها أنبتت حباله»[2].

وضمّن أبو القاسم الأفليلي هذا الربط قيمة نقدية حين دلل على حسن انتقال المتنبي من فكرة إلى أخرى، وخروجه من غرض إلى غرض آخر، كما في قول المتنبي:

وهبت السلو لمن لامني وبت من الشوق في شاغل
كأن الجفون على مقلتي ثياب شققن على ثاكل
ولو كنت في أسر غير الهوى ضمنت ضمان أبي وائل

قال أبو القاسم معقباً على الأبيات الأولى، ومقدماً لشرح البيت الثالث: «ثم خرج إلى وصف أمر أبي وائل أحسن خروج، فقال: ولو كنت

(١) انظر القصيدة ٣٢ البيت رقم ١٢.
(٢) انظر القصيدة ٤ البيت رقم ٢٢ ـ ٢٤.

أسير غير الحب، ومغلوباً في غير سبيل العشق؛ لاحتلت بحيلة أبي وائل في الاستتار، وضمنت لآسري ضمانه من الفكاك، وسلكت في الاحتيال عليه سبيله»[1].

وفي قول المتنبي:

لقيت بدرب القلة الفجر لقية شفت كمدي والليل فيه قتيل
ويوماً كأن الحسن فيه علامة بعثت بها والشمس منك رسول
وما قبل سيف الدولة اتّار عاشق ولا طلبت عند الظلام ذُحُول

قال أبو القاسم الأفليلي في العلاقة بين هذه الأبيات، خاصة البيت الثاني والثالث: «فجعل صفة هذا اليوم سبباً للترفع لمحبوبته، وإبانة عن جلالة قدرها، وعلو محلها، وخرج إلى المدح بألطف سبيل، ووصل إليه أحسن وصول»[2].

ولما كان المتنبي يعتمد الاستطراد لوناً بديعياً يحمّله طاقة فنية في الربط بين المعاني، واتصال الأفكار، كان انعطاف أبي القاسم إليه بالتوضيح تحقيقاً لوشائج القربى بين المعاني، من ذلك قول المتنبي:

خليلي إني لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومني القصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

قال أبو القاسم الأفليلي مفسراً ومعقباً: «ثم قال لصاحبيه: فلا تعجبا لذلك، فالسيوف كثيرة في ظاهرها، موجودة عند الطلب لها، ولكن سيف الدولة المحامي عن حوزتها، المدافع عن بيضتها، واحد لا يشاكل، ومفرد لا يماثل، فلا تنكرا أن تكثر الأشعار في ظاهرها، وأنفرد في الحقيقة بقولها، كما

(١) انظر القصيدة ٥ الأبيات ٧ ـ ٩.
(٢) انظر القصيدة ٥٠ الأبيات ١٠ ـ ١٢.

أن السيوف كثيرة في عدتها، وسيف الدولة منفرد بفعلها، وهذا الخروج باب من البديع يعرف بالاستطراد»[1].

وفهم أبي القاسم هذا، غير بعيد عما حدّ به أبو هلال العسكري الاستطراد في تعريفه له بالقول: «هو أن يأخذ المتكلم في معنى، فبينا يمرّ فيه، يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سبباً إليه»[2].

واستعانة أبي القاسم الأفليلي بالأخبار نادر في شرحه لأبيات المتنبي، ولكنه قد يقدم لشرح بعض الأبيات بمعارف مفيدة تتعلق بمقصود المتنبي، كما في ذكره الضب في قوله:

لقد لعب البين المشت بها وبي وزودني في السير ما زود الضَّبَّا

قال أبو القاسم الأفليلي: «تقول العرب: إن الضب يستنشق الريح فيغنيه عن الماء، وإنه لهذا أصبر الحيوان على العطش، وبحسب حاجته إلى الريح يرتقبها، وبضرورته إليها يعتني بطلبها... وعشاق العرب يفعلون ذلك، ويذكرونه في أشعارهم، فأشار أبو الطيب بذكره الضب إلى هذا المعنى أحسن إشارة، ودلّ عليه أبين دلالة»[3].

ولم يلتفت أبو القاسم الأفليلي إلى منهج ابن جني ومن شايعه من الشراح في تعزيز شرحهم للمعاني، بما أسنده ابن جنى إلى المتنبي سؤالاً وجواباً، كما في شرحه لقول المتنبي:

شَفَنَّ لخمسٍ إلى من طلبن قبل الشفون إلى نازل

قال ابن جني: «سألت أبا الطيب عن هذا البيت، فقال: نظرت خيلك ومسيرها خمساً إلى من طلبته، يعني الخارجي، قبل أن تنظر إلى إنسان

(١) انظر القصيدة ٣٠ بيت ١٤ ـ ١٥.
(٢) الصناعتين ص ٤١٤.
(٣) انظر القصيدة ٣٢ بيت رقم ١١.

نزل من فرسانها عنها، أي أدامت السير خمساً حتى لحقت الخارجي الذي فسره أبو الطيب»[1].

ولا مجال لنفي إفادة أبي القاسم الأفليلي من هذه الإجابات في توجيه شرحه الوجهة المقصودة لجواب المتنبي، ولا سبيل لنفي إطلاعه على شرح ابن جني، ولكنه غاير المنهج فتغير أسلوب العرض ومذهب الفهم، ودليل هذا شرح الأفليلي للبيت السابق بقوله: «فيقول: إن خيل سيف الدولة أدركت بغيتها قبل أن ينزل فرسانها عن ظهورها، وأنها نظرت بعد خمس ليالٍ من ركضها إلى من طلبته، قبل نظرها فيها إلى نزول من حملته، وأشار بذلك إلى فرسان هذه الخيل، لم يفتروا في الركض، حتى أوقعوا بالقوم الذين أسروا عليهم»[2].

ويحفز الأفليلي أحياناً في المتلقي لشرحه مشاركة، ويحمله على المتابعة، بإثارة بعض المفارقات في شعر المتنبي، كما في قوله:

ضلالاً لهذي الريح ماذا تريده وهدياً لهذا السيل ماذا يؤمم

إذ يقول ممهداً لشرحه: «ثم دعا على الريح ولم يدع لها، ودعا للسيل ولم يدع عليه؛ لأن الريح اعترضت سيف الدولة في مسيره، ولم تسعده على شيء من أموره، والسحاب وإن كان رام ثنيه بوبله، ووعر طريقه بسيله، فإنما تلاه متعلماً من جوده، وصحبه مسعداً له على رأيه، قاضياً لذمام القبر الذي قصده، ومروضاً بسقياه للربع الذي اعتمده، فيقول: ضل سعي هذه الريح، ووفق لهداه هذا السيل، ماذا تريده هذه، وماذا يقصده هذا، حين يعترضان سيف الدولة في مسيره، ويجاهران بالخلاف على أمره»[3].

---

(١) شرح ابن جنى ورقة ٢٠٦.

(٢) انظر القصيدة ٥ بيت رقم ١٧.

(٣) انظر القصيدة ٢٥ البيت رقم ١٩.

مثل هذه الإثارة بلا نظائر في شرحه، فلم يلتفت إلى قيمتها أسلوباً في تعميق معاني أبي الطيب، أو إثراء تحليله بها، لكن اتجاهه المطرد في التحليل كان متجهاً إلى تبصر مقاصد أبي الطيب البعيدة، ومراميه الفكرية التي توحي بها الألفاظ، وتسرّ بها التراكيب، ولذلك كان معنى المعنى، أو المعنى الأبعد، مدار تفسيره وتحليله، ففي قول أبي الطيب:

إذا شدَّ زندي حسن رأيك في يدي ضربت بنصل يقطع الهام مغمدا

قال ابن الأفليلي: «ثم قال إذا شدَّ زندي في يدي حسن رأيك، وانهض قوتي كريم اعتنائك، ضربت بسيف من إكرامك، تقطع الهام هيبة ذكره، وتنقد له الرؤوس في غمده، يشير إلى ما هو عليه من الاعتزاز به، والاستغناء بتقبله له، **واستعار من لفظه ليدل بذلك على ما فسرناه من قصده**»[1].

وفي قوله أيضاً:

تمسي الأماني صرعى دون مبلغه فما يقول لشيء ليت ذلك لي

قال: «ثم قال: تقصر الأماني عن بلوغ قدره، وتصغر عند جلالة أمره، وتصبح صرعى دون إدراك مجده، فما يتمنى في الرفعة أكثر مما يبلغه، ولا يحاول في الفضل ما يزيد على ما يفعله، **وهذه العبارة وإن لم يأت عليها لفظه، فهي مفهومة منه، وغير خارجة عنه**»[2].

وليس يخفى ما في عناية أبي القاسم الأفليلي بمعنى المعنى أو المعنى البعيد، من حسن فهم لخاصية شعر المتنبي في تكثيف المعاني وتركيزها في لفظ وجيز[3]، فضلاً عن اللمح والوثب في عرضه لها، ولذلك كان استحسان ابن الأفليلي للإشارة كثيراً في شعره، كما في قول أبي الطيب:

(١) انظر القصيدة ٥٧ البيت رقم ٣٤.
(٢) انظر القصيدة ٣٦ البيت رقم ٢٧.
(٣) انظر ذكرى أبي الطيب ص ٣١٦.

مـا كـان نـومي إلا فـوق معـرفـتي بـأن رأيـك لا يـأتي مـن الـزلـل

قال أبو القاسم: «يقول ما كان نومي حين موجدتك، وطمأنينتي في مدة عتبك وتسخطك، إلا فوق ما كنت أتيقنه من معرفتي بأن رأيك لا يستنزله الساعون ببغيهم، ولا يحيلونه بكذبهم، وكني بالنوم عن سكون نفسه، وتمهده لمعرفته بسيف الدولة عن حسن ظنه، فأشار إلى ما قصده ألطف إشارة، وعبر عنه أحسن عبارة»[1].

ومن كمال عناية ابن الأفليلي بالمعنى ووسائل تكثيفه، تركيزه على الاستثناء لوناً بديعياً ذا وظيفة فنية في الإثارة، لقبول المعنى وترسيخه، ذلك أن الشاعر بالاستثناء يعمل على تأكيد المعنى الذي يريده بإثارة لغوية، قد يتوقع السامع ضدها، فيأتي الاستثناء مخيباً للمتوقع، ومحققاً لقصد آخر رمى إليه الشاعر، ومن ذلك قول المتنبي:

ولم يكفها تصويرها الخيل وحدها فصورت الأشياء إلا زمانها

قال أبو القاسم مقارباً للفهم الذي قدمنا: «يقول: ولم يكف تلك الصناع أن صورت الخيل مع ما صورته، وصنعتها مع ما صنعته، حتى تصرفت في الأشياء فمثلتها، وكثرت منها وأظهرتها، فلم يعدم المتأمل لتلك الصنائع، والمشاهد لتلك البدائع، إلا الزمان بصورته، ومشاهدته بمثاله، والزمان لا صورة له، فدل بقوله؛ أنها لم يفتها إلا ما لا صورة له، عن أنها استوفت الصور بجملتها، ومثلتها بعامتها، وهذا من البديع يعرف بالاستثناء»[2].

وعلى الرغم من اهتمام الأفليلي بمعنى المعنى، ووسائل المتنبي في توصيله، فقد مرّ بالمعاني المشكلة في شعره مروراً كريماً عابراً، من غير أن يلفت النظر

(١) انظر القصيدة ٣٦ بيت رقم ٣٩.
(٢) انظر القصيدة ٣٣ بيت رقم ٣.

إليها أو يتلبث عندها، بل كان شأنها شأن الأبيات الأخرى في منهج التحليل والتفسير، فلم يحمله الإشكال فيها على التردد في الفهم أمامها، أو إثارة التعدد في احتمالات المعنى حولها، وهو موقف غاير فيه أغلب من عرض لأبيات المعاني في شعر المتنبي، ومثال ذلك:

وأنبت فيهم ربيع السباع فأثنت بإحسانك الشامل

قال الأفليلي: «ثم قال: وأنبت من أجسادهم ربيع السباع، فأخصبت في لحومها إخصاب السائمة في ربيعها، فأثنت بما عمّها من فضلك، وشملها من إحسانك، وأجرى أكثر لفظ هذا البيت على الاستعارة»[1].

وفي قول المتنبي المشكل:

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

قال أبو القاسم الأفليلي: «وفيما هنالك أيضاً خصر لطيف تثبت الأبصار فيه، وتتردد لحسنه عليه، ويكثر الإعجاب منها به، حتى كأن عليه منها نطاقاً يشمله، ووشاحاً يعمه»[2].

ويعرض البيت لابن بسام فيقول: «أي إذا رأته لم تنصرف عنه، وأدامت النظر إليه استحساناً والتذاذاً به، ويحتمل أن يريد أنها تؤثر فيها الأبصار، وتنطبع فيه لنعمته وبضاضته، وإن كان التأثير والانطباع لا يكون إلا مع المباشرة والاتصال، وهذه مبالغة وتغال، ويحتمل أن يريد أن الأبصار تتراءى فيه لصفائه وصقالته، كما يتراءى في سائر الأجسام الصقيلة، وهذا أشبه بقوله (كأن عليه من حدق نطاقاً) لأن ظاهر النطاق ينبغي أن يكون مما يلي الرائي لا مما يلي المنتطق»[3].

---

(١) انظر القصيدة ٥ بيت رقم ٤٤.

(٢) انظر القصيدة ١٤ البيت رقم ١٠.

(٣) سرقات المتنبي ومشكل معانيه ص ٦٦.

ولا يعني تمييز الأفليلي بالثبات في الفهم وعدم التردد أمام المعنى بالقطع بالمقصود، أن نحيف على منهج ابن بسام ومن جرى من الشراح على شاكلته، لأن إيراد الأوجه المتعددة جانب طبيعي عند من يقصدون تفسير العمل الأدبي بالكشف عن صلات الشاعر الفكرية والشعورية بالحياة[1].

وتعد السيفيات أحسن قصائد المتنبي[2]، إذ عكست نضج تجربته الفنية، وحملت سجيته الطربة للحرب والضرب والغلب[3]، فضلاً عن آماله العربية والإسلامية في التطلع إلى المنعة والقوة والعزة، إلا أن معانيه فيها لا تخلو من شائبة مبالغة أو مجاوزة لحدودها، ولا تصفو من غير تأثر بما سبقه من معان شعرية أو نثرية، فماذا كان موقف أبي القاسم الأفليلي من ذلك إيجاباً وسلباً؟

لا يعدم قارىء شرح الأفليلي وجود تعليق أو استدراك له على بعض المعاني بما يكسبها عمقاً وتوجيهاً إيجابياً، ومثال ذلك البيتين التاليين:

نبكي لموتانا على غير رغبة  تفوت من الدنيا ولا موهب جزل
إذا ما تأملت الزمان وصرفه  تيقنت أن الموت ضرب من القتل

قال أبو القاسم الأفليلي: «يقول: نبكي موتانا، ونحزن لهم، ونكثر الأسف لفراقهم، ونحن نتيقن أن لا يفوتهم من الدنيا ما يرغب في مثله، ولا يمنعون منها ما يجب أن يتنافس في نيله، لأنها بجملتها غرور، وتمتع من بقي فيها بصحبتها يسير. ثم قال: إذا تأملت الزمان وصروفه، وتدبرت الدهر وخطوبه، تيقنت أن ما حتم على الإنسان من الموت كالذي يتوقعه من القتل؛ لأن الأمرين متساويان في مكروههما، متماثلان فيما يشاهد من عدم الحياة بهما، فما ظنك بشيء يكون آخر مصيره إلى أكره ما يحذر من أموره، وهذا يوجب

(١) انظر تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص ١٩٢.
(٢) الصبح المبني عن حيثية المتنبي ص ٩٨.
(٣) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ص ٣٠٦.

الزهد في الدنيا، ويدعو إلى الإعراض عنها وقلة الأسف عليها»[1].

فالملاحظ أن أبا القاسم أعطى من ذاتيته وفكره ما أضفى على معنى المتنبي ودعوته بعداً فكرياً، إذ التعليل «لأنها بجملتها غرور، وتمتع من بقي فيها بصحبتها يسير» وقوله «وهذا يوجب الزهد في الدنيا، ويدعو الى الإعراض عنها، وقلة الاسف عليها» توجيهان قد يحتملها البيتان، ولكنهما استدراك أبي القاسم وإحساسه.

وفي قول المتنبي أيضاً :

ويختلف الرزقان والفعل واحد  إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا

نجد حضور أبي القاسم بفكره واعتقاده وإحساسه أيضاً، إذ يقول: «ثم قال: قد يختلف الرزقان وتتباين الفائدتان، والفعل واحد، والتناول متفق، حتى يذنب الرجل فيما يحسن غيره به، ويخطىء فيما يصيب سواه في مثله، كركاب البحر الذين يتفق فعلهم، ويختلف في التجارة والهلاك أمرهم، هذه أحوال الزمان، والسبيل في مقاصد الإنسان»[2].

## المبالغة في شعره

أما مبالغات المتنبي فقد خلع عليها الأفليلي صفات فنية حين جعلها من مستلزمات الشعر ومقتضيات أغراضه وغاياته، فعطف بعضها إلى طريق اللغة والمجاز، وألحق بعضاً آخر بتزيد الشعراء وتصوراتهم في تحقيق مرامي الأغراض الشعرية، فمما جاءت المبالغة فيه من طريق اللغة والمجاز قول المتنبي :

إن كان قد ملك القلوب فإنه  ملك الزمان بأرضه وسمائه
الشمس من حساده والنصر من  قرنائه والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله  من حسنه وإبائه ومضائه

(١) انظر القصيدة ٨ البيت رقم ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) انظر القصيدة ٣ البيت رقم ٣٤.

الذي «يريد أنه ملك جملته؛ لأنه رفع من أخمله، وأغنى من أفقره، وعمّ الناس بإحسانه، وشملهم بإنعامه، وهذا على سبيل التجوز وما يتزيد الشعراء فيه من القول. . . ثم قال: أين هذه الثلاثة مع جلالة أمرها، ورفعة قدرها من جلال خلاله الثلاثة، التي هي على نحوها لجلالة الفضل؛ لأن الشمس تطلع وتغرب، والنصر يقل ويكثر، والسيف ينبو ويقطع، وحسنه ثابت لا يعدم، وعزه رائد لا ينقص، ومضاؤه نافذ لا يدفع، وهذه طريقة من المجاز، يحسنها للشعراء ما يحاولونه من بلوغ غايات المدح، وما يتعارف من مثلها في اللغة»[1].

ومما أدركه الأفليلي في شعر المتنبي من طريق الكناية في المبالغة، ولم يخرج عن أسلوب العرب ومنهجهم في التعبير، قول المتنبي:

فجاز له حتى على الشمس حكمه وبان له حتى على البدر ميسم

قال أبو القاسم: «ثم قال فجاز حكمه حتى حكم على ما لا يجوز الحكم عليه، وبان وسمه حتى وسم ما لا يبين الوسم فيه، وجعل ذكر الشمس والبدر كناية عن هذه العبارة، والعرب تفعل ذلك، تصف الممدوح بالقدرة على ما لا يقدر أحد عليه في الحقيقة؛ ليوجب له بذلك غاية القوة، وأبعد نهايات القدرة»[2].

ومما جاء في شعر المتنبي من كذب المبالغة على طريقة الشعراء قوله:

وقد زعموا أن النجوم خوالد ولو حاربته ناح فيها الثواكل
وما كان أدناها لو أرادها وألطفها لو أنه المتناول

«يريد أن سعده يقرب له ما لا يقرب مثله، ويبلغه إلى ما لم يبلغه أحد قبله، وهذا من تزيد الشعراء الذين يستجيزون فيه الكذب، لما يحاولونه من

(١) انظر القصيدة ٤٦ الأبيات ٤ ـ ٦.
(٢) انظر القصيدة ٢٥ البيت رقم ٥.

بلوغ غايات المزح، ويرومونه من استيفاء أرفع منازل الوصف»[1].

فالمبالغة عند أبي القاسم الأفليلي مقبولة حسنة إذا جرت في طرائق التعبير المجازي في اللغة، القاصد إلى التزيين والتحسين واستيفاء المعنى والغرض، وهي مقبولة أيضاً، وإن كان الكذب أساسها، ما دام الشاعر يعطفها إلى طريقة الشعراء؛ طريقة العرب في تقريبها، وتسويغ الكذب فيها عن طريق أدوات تعبيرية، مثل لو التي أقام المتنبي بيته عليها في المثال السابق، ولولا، وكأن... الخ.

وليس بخاف أن هذا القبول بقدر ما يحمل من دلالة على وعي بطبيعة الشعر والصنعة الفنية فيه، فإنه يحمل بالقدر نفسه إعجاب أبي القاسم الأفليلي ببلاغة المتنبي ودفاعه عنها وتسويغه لها.

وإذا كان أبو القاسم الأفليلي قد وفق في إيجاد المسوغ للمبالغة في شعر المتنبي، بالإشارة إلى طريقة الشعراء على وجه العموم من غير أن يضرب لذلك أمثلة، فقد جانبه التوفيق حين سوى بين بيت للنابغة وقول المتنبي:

كأنها تتلقاهم لتسلكهم فالطعن يفتح في الأجواف ما تسع

قال الأفليلي شارحاً ومقايساً[2]: «ثم قال: كأنما تتلقى هذه الخيل الروم لتسلك أجسادهم، وتتخذ طرقاً في جسومهم، فطعن فرسانها فيهم يفتح ما يسعهم، ويخرق ما لا يضيق بهم، وليس هذا في الإفراط بأعجب من قول النابغة يصف سيوف بني جفنة:

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحُباحِب[3]

(١) انظر القصيدة ٦٠ البيت رقم ٣٢، ٣٣.

(٢) انظر القصيدة ٢٨ البيت رقم ٢٠.

(٣) الحباحب: ما اقتدح من شرر النار في الهواء، وقد اختلف الشراح في تحديد مصدر الشرر في البيت، أهو من حوافر الخيل في صكها الحجارة أم من السيوف.

حقاً أن بيت النابغة من الإفراط كما قال الأصمعي[1]، ولكنه لا يستوي في ذلك مع بيت المتنبي، الذي يزيد عليه في الإفراط، لكن الأنسب أن يسوى بيت المتنبي[2] بقول قيس بن الخطيم:

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

## السرقات

وأما تأثر المتنبي بمعاني من سبقه من الشعراء فقضيّة كان أبو القاسم الأفليلي متزناً في تناولها في هذه السيفيات، فهو لم ينكر تأثره بغيره، أو تناوله لمعانيهم، ولكنه اقتصد في الدلالة على ذلك، إذ ماز المشترك العام من المعاني الذي تداولته الشعراء فغدا طريقة مسلوكة مقصودة، عما هو خاص نادر أو مبتدع، فمن العام المشترك قول المتنبي:

أيدري الربع أي دم أراقا وأي قلوب هذا الركب شاقا

قال أبو القاسم دالاً على ذلك: «الشعراء تذكر أن الحزن إذا أفرط، والبكاء إذا اتصل، امتزج الدم بالدمع، فتلاه في جريه، وانحدر في أثره»[3].

وبراعة الشاعر ومهارته في صنعته قادرة على إحالة العام المشترك من المعاني إلى مبتدع نادر؛ بما يضفي عليه من ذاتيته «وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر، فتشترك الجماعة في الشيء المتداول، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب، أو ترتيب يستحسن، أو تأكيد يوضع موضعه، أو زيادة اهتدى لها دون غيره، فبريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع»[4] ويلاحظ هذا التفاضل في قول المتنبي:

(١) ديوان النابغة صنعة ابن السكيت تحقيق د. شكري فيصل ص ٦١.
(٢) انظر التبيان ٢/٢٢٧.
(٣) انظر القصيدة ١٤ البيت رقم ١.
(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه ١٨٦.

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل  دعا فلباه قبل الركب والإبل

قال أبو القاسم الأفليلي: «أشار إلى نفسه وبعض الإبل بالحنين، وأشار إلى ناقته، والشعراء يصفون مطاياهم بالحنين إلى ديار الأحبة، كما يصفون بذلك أنفسهم. وقد كشف أبو الطيب هذا المعنى حيث يقول:

إثلث فإنا أيها الطلل نبلى وترزم تحتنا الإبل[1]

وقد يظل للمتقدم فضيلة السبق إلى المعنى والإبانة عنه على الرغم من تداوله واشتهاره عند المتأخرين، وقد فطن إلى ذلك أبو القاسم الأفليلي في قول المتنبي:

دون السهام ودون الفر طافحة  على نفوسهم المقورة المزع

قال الأفليلي: «وقصد السهام من بين سائر السلاح مشيراً إلى غلبة هذه الخيل لهم في أول القتال؛ لأن الرمي في القتال أول الحرب، وقد بين ذلك زهير بقوله:

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا أطعنوا  ضارب حتى إذا ضاربوا اعتنقا

فأخبر بأن هذه الخيل صرعتهم في أول الحرب، ومنعتهم ما راموه من الفر»[2].

على أن أبا القاسم الأفليلي لم يتهم المتنبي بالأخذ أو السرق فيما عرض له من شعره، ولا نصّ على ذلك بلفظه، وكل ما أشار إليه في هذا الشأن عبّر عنه بـ (ألمّ) أو «نحو» أو «أجمل ما فسره»، والنحو الإلمام والإجمال وإن كانت مصطلحات غير محددة الدلالة على السرق، إلا أنها تعني وقوعه الجزئي في المعنى دون اللفظ، ومن أمثلة ذلك عند الأفليلي قول المتنبي:

(١) انظر القصيدة ٣٦ بيت رقم ١.
(٢) انظر القصيدة ٢٨ بيت رقم ٢٢.

تساوت به الأقتار حتى كأنه يجمع أشتات الجبال وينظم

الذي يعني «تساوت بهذا الجيش العجاجات، فصار ما يثور منها في الجبل الصلد، كالذي يثور منها في القرار الرخو، يشير إلى أن هذا الجيش يسحق الجبال بكثرته، ويحطها بعظمه... وألم بقول النابغة:

جيش يظل به الفضاء معضلاً يدع الأكام كأنهن صحارى[1]

والإلمام أهون ما يوجه لبيت المتنبي؛ لأنه أخذ المعنى وجرى به في صياغة لفظية مجانبة لصياغة النابغة، فقوله «يجمع أشتات الجبال وينظم» هو معنى قول النابغة (يدع الأكام كأنهن صحارى»، لكن تصور المتنبي لعمل الجيش كان في تعبير أجود، إذ تخيله جامعاً منظماً لاتصال ما يثور من عجاج في الجبل والسهل.

واتساقاً مع منهج أبي القاسم الأفليلي في عدم اتهام المتنبي بالسرقة صراحة وتخفيفه من القول بها، غاير موقف كثير من النقاد السابقين، إما بالصمت حيال كثير من الأبيات التي وقع فيها السرق، وإما بتوجيه السرق وجهة خاصة، فمما صمت حياله قول المتنبي:

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

المأخوذ من قول مسلم بن الوليد[2]:

يفتر عند افتراز الحرب مبتسماً إذا تغير وجه الفارس البطل

ومما وجهه ابن الأفليلي وجهة خاصة قول المتنبي:

هو الشجاع يعد البخل من جبن هو الجواد يعد الجبن من بخل

(١) انظر القصيدة ٢٥ بيت رقم ٢٧.

(٢) الوساطة ص ٣١٠ ـ وانظر باب السرقات في الوساطة.

الذي «دل على أن الشجاعة والجود من طريق واحد، وأجمل ما فسره أبو تمام بقوله[1]:

وإذا رأيت أبا يزيد في وغى ... وندى ومبدىء غارة ومعيدا
يقرى مرجيه مشاشة ماله ... وشبا الأسنة تعرة ووريدا
أيقنت أن من السماح شجاعة ... وعلمت أن من الشجاعة جودا

فعلى الرغم من أن بيت المتنبي معدود في سرقاته من أبي تمام[2]، فقد عدّ ابن الأفليلي صنع المتنبي فيه من الفن، إذ أنه تصرف بالمعنى فأجمله وركزه، فلم يخل به، بل زاد عليه بهذه العلاقة التبادلية بين البخل والجبن، بإيقاع موسيقي متردد بين العجز والصدر.

وفي قول المتنبي:

له عسكرا خيل وطير إذا رمى ... بها عسكراً لم تبق إلا جماجمه

قال: «ذكر أن الطير تصحب خيله اعتياداً؛ لكثرة وقائعها على نحو قول النابغة[3]:

إذا ما غزا بالجيش حلّق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائب

وبذلك غاير الأفليلي من سبقه من النقاد الذي جعلوا بيت النابغة مصدراً لقول المتنبي:

سحائب من العقبان يزحف تحتها ... سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه

---

(١) انظر القصيدة ٦ بيت رقم ١٥.

(٢) الوساطة ص ٢٢٧، وعده العميدي مسروقاً من قدامة بن موسى الجمحي في قوله:
شجاع يرى الأحجام كفراً فيتقى ... وسمح يرى الافضال فرضاً فيفضل
وما يتناهى القوم في وصف مدحه ... ولكنني أبغي اختصاراً فأجمل
(الإبانة عن سرقات المتنبي ص ٨١).

(٣) انظر القصيدة رقم ١ البيت رقم ٢٧.

فقرنوه به وبغيره من الشعراء كالأفوه الأودي، وحميد بن ثور الهلالي، وأبي نواس، وأبي تمام في قوله[1]:

وقد ظلت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طيرٍ في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

والرأي ما ذهب إليه أبو القاسم الأفليلي، سواء فيما اختاره مصدراً لمعنى المتنبي، أو فيما وجه به معنى المتنبي وأنه نحو من قول النابغة، أما باقي الشعراء «فكلهم قصر عن النابغة، لأنه زاد في المعنى ودلّ على أن الطير إنما أكلت أعداء الممدوح، وكلامهم كلهم مشترك يحتمل أن يكون ضد ما نواه الشاعر، وإن كان أبو تمام قد زاد في المعنى. وإنما المحسن المتخلص المتنبي حيث يقول: له عسكرا خيل. . . . البيت»[2].

وإذا كان أبو القاسم الأفليلي دقيقاً مصيباً في النماذج السابقة، فأظنه جانب الصواب إذ عدّ قول المتنبي:

وهب الذي ورث الجدود وما رأى فعالهم لابن بلا أفعاله

نحواً من قول المتوكل الليثي[3]:

لسنا وإن كرمت أوائلنا يوماً على الأحساب نتكل

لأنه من المتداول بين الشعراء، فقد تناوله الخريمي والبحتري وأبو الطيب في أكثر من موضع في شعره، لكن القديم منه ما جاء عند المتوكل الليثي[4].

وكان المنتظر من أبي القاسم الأفليلي أن ينعطف إلى معاني أبي تمام

(١) انظر الوساطة ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٢) رسالة التوابع والزوابع ١٣٣.
(٣) انظر القصيدة رقم ١٢ البيت رقم ٣٣.
(٤) انظر الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٣٧١.

وشعره موازناً بشعر أبي الطيب المتنبي لسببين، أولهما: كثرة اتهام السابقين من النقاد له بالإغارة على معاني أبي تمام. وثانيهما: ما عرف به أبو القاسم الأفليلي من أنه كان «عظيم السلطان على شعر حبيب الطائي، وأبي الطيب المتنبي، كثير العناية بهما خاصة»[1].

وإذا استثنينا الإشارة السابقة التي أجمل أبو الطيب ما فسره أبو تمام، فإن شرح أبي القاسم يخلو من آثار هذه العناية والسلطان على شعر أبي تمام، على الرغم من أن كثيراً من أبيات المتنبي في السيفيات مصدرها شعر أبي تمام كقوله:

أعدوا رماحاً من خضوع فطاعنوا بها الجيش حتى رد غرب الفيالق

من قول أبي تمام[2]:

فحاط له الإقرار بالذنب روحه وجثمانه إذا لم تحطه قنابله

وقول المتنبي:

وما في سطوة الأرباب عيب ولا في ذلة العبدان عار

من قول أبي تمام[3]:

خضعوا لصولتك التي هي عندهم كالموت يأتي ليس فيه عار

ولست أعفي بعض هذه الإشارات من التمحل والتجني على أبي الطيب، وغير بعيد عن الاحتمال أن يكون أبو القاسم الأفليلي أهملها ملتفتاً إلى هذا، لكن هذا الموقف الصامت المتجاهل لكل ذلك، مما لا يتناسب ومنهج القوامة الذي يقضي بالإشارة إلى ذلك، ثم يلتمس لموضوعيته النقدية تأويلاً مرضياً، أو تخريجاً مبعداً.

---

(١) الصلة ١/٩٣.

(٢) الوساطة ص ٢٩٢.

(٣) الوساطة ص ٢٩٣.